تفسير سورةُ الفرقان

من آية (30) إلى آية (34)

اللقاء الخامس

المعنى الإجمالي من آية (25) إلى آية (29):

يصِفُ الله تعالى بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: واذكُرْ -أيُّها الرسولُ- حين تتشَقَّقُ السَّماءُ عن سَحابٍ رَقيقٍ أبيضَ يومَ القيامةِ، وتُنزَّلُ الملائِكةُ إلى أرضِ المحشَرِ تنزيلًا. في ذلك اليَومِ يكونُ السُّلطانُ الثَّابِتُ الحَقُّ لله وحْدَه دونَ غيرِه مِن مُلوكِ الأرضِ، وكان ذلك اليَومُ يَومًا شَديدًا على الكافرينَ.

ثمَّ يذكُرُ تعالى ما يكونُ عليه الكافرونَ يومَ القيامةِ مِن حسرةٍ وندامةٍ، فيقولُ: واذكُرْ حين يَعَضُّ الظَّالمُ المحادُّ للهِ ورَسولِه على يَدَيه؛ تحسُّرًا وأسَفًا، يقولُ: يا ليتني سلَكْتُ طَريقَ الحَقِّ الذي جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واتبَعْتُه فيما جاء به مِن عندِ رَبِّه.

وأنَّه يقولُ في هذا اليومِ: يا هَلاكي! ليتَني لم أتَّخِذْ مَن أضَلَّني وأغواني في الدُّنيا صديقًا لي وحبيبًا، لقد صرَفَني هذا الصَّديقُ المشؤومُ عن القُرآنِ والهُدى بعد أن بلَغَني. ثمَّ قال الله تعالى: وكان الشَّيطانُ كثيرَ الخِذلانِ للإنسانِ الذي يتَّبِعُه، تارِكًا لإعانتِه ونصرِه وَقتَ استِنصارِه به.

(أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ)

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ﴿30﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها: قال الرازي: لَمَّا أكثَرَ الكُفَّارُ مِن الاعتراضاتِ الفاسِدةِ ووجوهِ التعَنُّتِ؛ ضاق صدرُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وشكاهم إلى اللهِ تعالى

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) أي: وقال الرَّسولُ مُشتَكيًا في الدُّنيا إلى رَبِّه: يا رَبِّ، إنَّ كُفَّارَ قَومي تَرَكوا القُرآنَ العظيمَ وهجَروه؛ لا يَسمَعونه ولا يتدَبَّرونَه، ولا يُؤمِنونَ به، ولا يَعمَلون بأحكامِه. موسوعة التفسير

وقال ابن باديس: إظهارٌ لعَظيمِ الْتِجائِه، وشِدَّةِ اعتِمادِه، وتَمامِ تَفويضِه لمالكِه، ومُدبِّرِ أمْرِه، ومُوالي الإنعامِ عليه.

تَعظيمٌ للشِّكايةِ، وتَخويفٌ وتَحذيرٌ لقَومِه؛ لأنَّ الأنبياءَ كانوا إذا التَجَؤوا إليه، وشَكَوا إليه قَومَهم، حَلَّ بهمُ العَذابُ ولَمْ يُنظَروا.

وقال ابن باديس: فهؤلاء الذين سمَّاهم اللهُ تعالى أعداءً لنبيِّه، ووَصَفَهم بالإجرامِ: هم أولئك الذين هَجَروا القرآنَ وصَدُّوا عنه؛ فهذا تخويفٌ عظيمٌ ووعيدٌ شديدٌ لكلِّ مَن كان هاجرًا للقرآنِ العظيمِ بوجهٍ مِن وجوهِ الهِجرانِ.

قال ابنُ كثير: وكانوا إذا تُلِيَ عليهم القُرآنُ أكثَروا اللَّغَطَ والكلامَ في غَيرِه؛ حتى لا يَسمَعوه، فهذا مِن هِجرانِه، وتَرْكُ عِلْمِه وحِفْظِه أيضًا: مِن هِجرانِه، وتَركُ الإيمانِ به وتَصديقِه: مِن هِجرانِه، وتَرْكُ تَدَبُّرِه وتَفَهُّمِه: مِن هِجرانِه، وتَركُ العَمَلِ به، وامتِثالِ أوامِرِه واجتنابِ زواجِرِه: مِن هِجرانِه، والعُدولُ عنه إلى غَيرِه؛ مِن شِعرٍ، أو قَولٍ، أو غِناءٍ، أو لَهْوٍ، أو كلامٍ، أو طريقةٍ مأخوذةٍ مِن غَيرِه: مِن هِجرانِه).

وقال ابن باديس: (وفي حِكاية القرآن لهذه الشَّكوى: وعيدٌ كبير للهاجرين بإنزالِ العِقاب بهم إجابةً لشكوى نبيِّه، ولَمَّا كان الْهَجْرُ طَبَقَاتٍ أعلاها عدمُ الإيمانِ به، فلِكلِّ هاجرٍ حظُّه مِن هذه الشَّكوى وهذا الوعيد، ونحنُ معشر المسلمين قد كان مِنَّا للقرآنِ العظيمِ هَجْرٌ كثيرٌ في الزَّمانِ الطَّويلِ وإنْ كنَّا به مؤمنين) انتهى.

قال ابن القيِّم: (هَجْرُ القرآنِ أنواعٌ: أحَدُها: هَجْرُ سَماعِهِ والإيمانِ بِهِ والإصغاءِ إليهِ، والثاني: هَجْرُ العَمَلِ به والوقوفِ عند حلالِهِ وحرامِهِ وإنْ قَرَأَهُ وآمَنَ به، والثالثُ: هجرُ تحكيمِه والتحاكُمِ إليه في أُصولِ الدِّينِ وفُروعِهِ، واعتقادُ أنَّه لا يُفِيدُ اليقينَ، وأنَّ أدلَّتهُ لفظيَّةٌ لا تُحصِّلُ العِلْمَ، والرابع: هجرُ تدبُّرِه وتفهُّمِه ومعرفةِ ما أرادَ الْمُتكلِّمُ بِهِ منه، والخامسُ: هَجْرُ الاستشفاءِ والتداوي بِهِ في جميع أمراضِ القُلُوبِ وأدوائها؛ فيَطلبُ شِفاءَ دائِهِ مِن غيرِهِ ويَهجُرُ التداويَ به، وكلُّ هذا داخلٌ في قولِهِ: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: 30]، وإنْ كان بعضُ الهَجْرِ أهونَ من بعضٍ) انتهى.

أسباب هجر القرآن الكريم

هناك عدة أسباب تؤدي إلى هجر القرآن الكريم، منها:

1. ضعف الإيمان بالله -عز وجل- فضعف الإيمان يؤدي إلى فتور صاحبه عن العمل الصالح وعن الطاعات، والتي من ضمنها تلاوة القرآن الكريم.
2. اتّباع الهوى، واستحواذه على معظم اهتمامات الإنسان، وشغله معظم وقته.
3. ارتكاب المعاصي والآثام؛ فالمعاصي تجعل حاجزاً بين صاحبها وعمل الصالحات، وَتُضْعِفُ من همّته عن القيام بالطاعات، وَتفتر من عزمه في تلاوة القرآن وتدبُّره.
4. تعدّد مشاغل الدنيا، وكثرة همومها، فقد أصبح جل اهتمامنا وشغلنا بغير القرآن الكريم مما أدى إلى التشاغل عنه وهجره.
5. عدم الوعي بقيمة تلاوة القرآن الكريم ومعرفة فضله.
6. عدم تَوَفُّر تربية إيمانية سليمة، تُعمِّق صلة المسلم بكتاب الله عزَّ وجل.

❼عدم أخذ القرآن الكريم حيّزاً مناسباً من الاهتمام في الأسرة، وذلك بإهمال سماعه عبر الفضائيات أو مواقع (اليوتيوب)، يُضْعِفُ من رغبة الأبناء وباقي أفراد الأسرة في تلاوته، فضلاً عن تدبر آياته، والوقوف عند أحكامه.

❽انعدام القدوة الحسنة في الحياة؛ ذلك لأنّ للقدوة الحسنة الأثر العظيم في توجيه سلوك المسلم نحو الأفضل.

❾عدم التوفيق في اختيار الصحبة الحسنة، وعدم قيام الصداقة على أسس سليمة؛ فالصديق يؤثّر سلباً أو إيجاباً في صديقه.

آثار هجر القرآن الكريم

هناك آثار سلبية تنعكس على الفرد والمجتمع نتيجة هجر القرآن الكريم، منها:

❶الشعور بالقلق الدائم، والتوتُّر في الحياة؛ حيث خلا هاجر القرآن من النور الذي يستضيء به في حياته، والمعين الذي يبدد به الهموم والأحزان.

❷عدم التوفيق في العمل؛ فهاجر القرآن لا يُوَفَّقُ في عمله، وإن ظهر له خلاف ذلك، فهو محض استدراج له، لحكمة يريدها الله سبحانه.

❸قلَّة البركة في الرزق، فمهما أوتي هاجر القرآن من رزق ومال لا يشعر بقيمته ولا ببركته.

❹الشعور بالضنك في مختلف جوانب الحياة، التربويَّة، والسياسيَّة، والاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، مصداقاً لقوله تعالى:(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [طه:124].

❺قسوة القلب: لأن القرآن الكريم يعمل على ترقيق القلوب المؤمنة فهي تطمئن بذكر الله (أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [الرعد:28]، فنعوذ بالله من القلب القاسي.

❻ تغلب الشيطان وأعوانه من شياطين الجن والإنس: فذكر الله تعالى خير حافظ للعبد، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

❁وقد ورد عن النبي –ﷺ–أن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا تأتيه البطلة، وهم شياطين الجن والإنس.

قال–ﷺ–: "اقْرَؤُوا سُورَةَ البَقَرَةِ، فإنَّ أخْذَها بَرَكَةٌ، وتَرْكَها حَسْرَةٌ، ولا تَسْتَطِيعُها البَطَلَةُ". صحيح مسلم

❼حرمان العبد من فضل التلاوة والتعبد بها: فقد فوت العبد على نفسه بهجرانه للقرآن أجراً عظيماً، وفضلاً كبيراً.

❽الحرمان من شفاعته له يوم القيامة: قال–ﷺ–: "اقْرَؤُوا القُرْآنَ فإنَّه يَأْتِي يَومَ القِيامَةِ شَفِيعًا لأَصْحابِهِ". صحيح مسلم

❾ تكثر الأهواء ويقل العلم وينتشر الجهل وكل هذه عوامل على انتشار البدع وتحكيم الهوى.

فالواجب العناية بكتاب الله تلاوةً وحفظاً وتدبراً، والحرص على تعلم القرآن وتعليمه، والإنفاق في سبيل ذلك على حلقات تحفيظ القرآن الكريم والعمل على تشجيع أبنائنا وبناتنا للالتحاق بتلك الحلقات؛ لما في ذلك من خدمة للقرآن وعلومه، والفوز بالخيرية التي ذكرها النبي -ﷺ-حين قال: "خَيْرُكُمْ مَن تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَهُ" صحيح بخاري

لا تَهجُروا هذا القرآن، اقرأوه، واسمعوه من غيركم، فهو الميسَّر للذِّكر، لمن صلَحت نيَّتُه، وطابت سريرتُه؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17]، والله ما أنزل هذا القرآن إلا لنُؤمن بمتشابهه، ونُحِل حلالَه، ونُحرِّم حرامَه، ونُحكِّمه في نفوسنا، وفي أموالنا، وفي كل مجالاتنا ومعاملاتنا، في خَلواتنا واجتماعاتنا لنا وعلينا، والحذر كل الحذر أن تُحكِّميه فيما هو لك، وتُعرِضي عما هو عليك؛ فهذا شأن المنافقين.

قال ابن القيم: تلاوة القرآن ربيع للقلوب وشفاء للصدور ونور للبصائر وحياة للأرواح: ثم يأخذ بعد ذلك في تلاوة ربيع القلب، وشفاء الصدور، ونور البصائر، وحياة الأرواح، وهو كلام رب العالمين، فيحل به فيما شاء من روضات مونقات، وحدائق معجبات، زاهية أزهارها، مونقة ثمارها، قد ذُلِّلت قطوفها تذليلًا، وسُهلت لمتناولها تسهيلًا، فهو يجتني من تلك الثمار خيرًا يُؤمر به، وشرًّا يُنهى عنه، وحكمة وموعظة، وتبصرة وتذكرة، وعبرة، وإزالة لشبهة، وجوابًا عن مسألة، وإيضاحًا لمشكل، وترغيبًا في أسباب فلاح وسعادة، وتحذيرًا من أسباب خسران وشقاوة، ودعوة إلى هدًى.

وها هي صور مشرقة ممن أشربت قلوبهم محبة القرآن الكريم:

- وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه يُحيي الليل كُلَّه في ركعةٍ يقرأ فيها القرآن.
- وقرأ تميم الداري القرآن في ركعة، وقرأ سعيد بن جبير القرآن في ركعة داخل الكعبة.
- الإمامِ الشافعيّ رحمهُ اللهُ: أنهُ كانَ يَخْتِمُ في اليومِ والليلَةِ من شهرِ رمَضَانَ ختمَتَيْنِ، وفي غيرِهِ ختمَةً.
- وعن أبي عبدِ اللهِ البُخاريّ صاحبِ الصحيحِ: أنهُ كان يَختمُ في الليلةِ ويومِهَا من رمَضَانَ خَتْمَةً.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ ﴿31﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن باديس: لَمَّا شكا عليه الصلاةُ والسلامُ قومَه؛ سلَّاه اللهُ تعالى وعزَّاه، وأمرَه بالصَّبرِ والثَّباتِ، ووعدَه ورجَّاه، قال الرازي: وبَيَّنَ أنَّ له أُسوةً بسائِرِ الرسُلِ؛ فلْيَصبِرْ على ما يَلْقاهُ مِن قَومِه كما صَبَروا.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ) أي: وكما جعَلْنا لك -يا محمَّدُ- أعداءً مِن مُشرِكي قَومِك، كذلك جعَلْنا لكُلِّ الأنبياءِ أعداءً مِن الكُفَّارِ المشرِكين مِن أقوامِهم يُعارِضونَهم ويُؤذونَهم؛ فاصبِرْ كما صبَر أولئك الرسُلُ مِن قَبْلِك. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا [الأنعام: 112].

وقال ابن عثيمين: عنايةُ اللهِ تعالى بالرَّسولِ، ووجْهُ ذلك: أنَّ كَوْنَ اللهِ يُسلِّي الرَّسولَ بما وقَعَ لغَيرِه، هذا دليلٌ على العنايةِ به. وكونُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم يحتاجُ إلى تلك التسليةِ يدُلُّ على أنَّ الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم بَشَرٌ، يَنتابُه ما ينتابُ البشَرَ مِن الحُزنِ والأسَى، فيَحتاجُ إلى التسليةِ، وإذا كان الرسولُ يحتاجُ إلى ذلك فمَن دونَه مِن بابِ أَولى؛ فالنَّظرُ إلى ما أصاب الغيرَ يُهَوِّنُ على النفْسِ ما يُصيبُها، وهو مِن مقتضياتِ الطبيعةِ البشريَّةِ.

وقال ابن عثيمين: ابتلاءُ اللهِ سُبحانَه وتعالى للمُؤمِنِ؛ فإنَّه إذا كان الإيمانُ قويًّا فإنه يَصمُدُ أمامَ هذه الشُّبُهاتِ، وأمامَ هذه العَداوةِ، وإذا كان ضعيفًا فإنه يتأثَّرُ، فهذا مِن حِكمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ أنَّ اللهَ يُقيِّضُ للإنسانِ ما يكونُ سببًا للحَيلولةِ بيْنه وبيْن دَعوتِه لِيَبلُوَهُ، قال سُبحانه وتعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ يعني: اطمأنَّ بحالِه التي هو عليها، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ [الحج: 11] : وإنْ أصابَته فِتنةٌ وأمرٌ يَشغَلُه انقلبَ على وَجهِه.

(وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا)

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا كان هذا مَوطنًا تتعلَّقُ فيه النفوسُ متشوِّقةً إلى الهدايةِ بعْدَ هذا الطَّبْعِ، والنُّصرةِ بعْدَ ذلك الجَعْلِ؛ كان كأنَّه قيل: لا تَحزَنْ؛ فلَنَجعلَنَّ لك وَلِيًّا ممَّن نَهْديه للإيمانِ، ولَننصرَنَّهم على عدوِّهم كما فعَلْنا بمَن قبْلَك، بل أعظم

(وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) أي: وكفى بربِّك -يا محمَّدُ- هاديًا يَهديك إلى الحَقِّ وإلى مصالحِ الدِّينِ والدُّنيا، وناصِرًا لك على أعدائِك، يدفَعُ عنك كُلَّ مَكروهٍ في أمرِ الدِّينِ والدُّنيا؛ فلا تُبالِ بمَن عاداك، واصبِرْ وامضِ لتبليغِ رِسالةِ الله إليهم، متوكِّلًا عليه سبحانه. موسوعة التفسير

وقال سُبحانَه: إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ [آل عمران: 160].

قال ابن باديس: أنَّه قد وعَدَ اللهُ تعالى نبيَّه -بعْدَما أمَرَه بالتأسِّي والصَّبرِ-، بالهدايةِ والنَّصرِ؛ ففي هذا بِشارةٌ للدُّعاةِ مِن أُمَّتِه مِن بعْدِه، السَّائرينَ في الدَّعوةِ بالقرآنِ وإلى القرآنِ على نَهْجِه: أن يَهديَهم ويَنصُرَهم، كما قال تعالى: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ [العنكبوت: 69] معهم بالفضلِ والنَّصرِ والتأييدِ، وهذا عامٌّ للمجاهِدينَ المحسنينَ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ ﴿32﴾

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: هلَّا نزَّل اللهُ على محمَّدٍ القُرآنَ دَفعةً واحِدةً، ولم يُنَزِّلْ مُفَرَّقًا. موسوعة التفسير

(كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) أي: كذلك نزَّلنا عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- مُفَرَّقًا؛ لنقوِّيَ قَلبَك فتَعِيَه وتحفَظَه، وتَزدادَ يقينًا وطُمأنينةً وثَباتًا. موسوعة التفسير

(وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) أي: أنزَلْناه مفرَّقًا على تُؤَدةٍ وتَمَهُّلٍ، شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، آياتٍ ثمَّ آياتٍ، وبيَّنَّاه تبيينًا. موسوعة التفسير

قال القصاب: دَليلٌ على أنَّه يَنبَغي لِمَن أراد حِفظَ شَيءٍ أنْ يَحفَظَ منه قَدْرًا قليلًا، أو شَيئًا بعْدَ شَيءٍ؛ لِيَرسَخَ في قلبِه، ويأمَنَ مِن نسيانِه.

وقال ابن عاشور: (والترتيلُ يوصَفُ به الكلامُ إذا كان حسَنَ التأليفِ، بيِّنَ الدَّلالةِ... والترتيلُ يجوزُ أن يكون حالةً لنزولِ القرآنِ، أي: نزلَّناه مفرَّقًا منسَّقًا في ألفاظِه ومعانيه، غيرَ متراكمٍ، فهو مفرَّقٌ في الزمانِ، فإذا كمل إنزالُ سورةٍ جاءت آياتُها مرتَّبةً متناسِبةً، كأنَّها أُنزلت جُملةً واحدةً، ومفرَّقٌ في التأليفِ بأنه مفصَّلٌ واضحٌ... ويجوزُ أن يرادَ بـ «رتلناه»: أمَرْنا بترتيلِه، أي: بقراءتِه مرتَّلًا، أي: بتمهُّلٍ بألَّا يُعجِّلَ في قراءتِه؛ بأن تُبيَّنَ جميعُ الحروفِ والحركاتِ بمهلٍ، وهو المذكورُ في سورةِ «المزمل» في قولِه تعالى: وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا [المزمل: 4]).

كما قال تعالى: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) [الإسراء: 106].

قال ابن باديس: بيانُ حكمتينِ في إنزالِه مفرَّقًا: الحكمةُ الأُولى: تثبيتُ قلبِه صلَّى الله عليه وسلَّم. الحكمةُ الثانيةُ: تفريقُه مرتَّبًا على الوقائعِ. وكان في تَينِك الحكمتينِ مَزيَّتانِ عظيمتانِ للقرآنِ العظيمِ على غيرِه مِن كُتُبِ اللهِ تعالى، فكان ما اعتَرَضوا به على أنَّه نقصٌ فيه عنها: هو كمالٌ له عليها.

وقال ابن باديس: كانتِ الوقائعُ تقعُ، والحوادثُ تَحدُثُ، والشُّبَهُ تَعرِضُ، والاعتراضاتُ تَرِدُ؛ فكانتِ الآياتُ تَنزِلُ بما تتطلَّبُه تلك الوقائعُ مِن بيانٍ، وما تقتضيه تلك الحوادثُ مِن أحكامٍ، وما تَستدعيه تلك الشُّبَهُ مِن رَدٍّ، وتلك الاعتراضاتُ مِن إبطالٍ وغيرِه مِن مقتضياتِ نزولِ الآياتِ المعروفةِ بـ «أسبابِ النزولِ»، وفي بيانِ الواقعةِ عندَ وقوعِها، وذِكْرِ حُكْمِ الحادثةِ عندَ حدوثِها، ورَدِّ الشبهةِ عندَ عُروضِها، وإبطالِ الاعتراضِ عندَ ورودِه: ما فيه مِن تأثيرٍ في النفوسِ، ووَقْعٍ في القلوبِ، ورسوخٍ في العقولِ، وجلاءٍ في البيانِ، وبلاغةٍ في التطبيقِ، واستيلاءٍ على السامعينَ، وما كان هذا كلُّه لِيأتيَ لولا تفريقُ الآياتِ في التنزيلِ، وترتيلُها وتنضيدُها هذا الترتيلَ العجيبَ، وهذا التنضيدَ الغريبَ؛ الذي بَلَغَ الغايةَ مِن الحُسْنِ والمنفعةِ، حتى إنَّه لَيَصِحُّ أن يُعَدَّ وحْدَه وجهًا مِن وجوهِ الإعجازِ.

وقال ابن باديس: مِن محاسِنِ هذه الشَّريعةِ المطَهَّرةِ أنَّها نزلت بالتَّدريجِ المناسِبِ، ويُفيدُنا ذلك فائدةً عمليَّةً، وهي أن نقرأَ القرآنَ ونتفهَّمَه حتى تكونَ آياتُه على طَرَفِ ألسنتِنا، ومعانيه نُصبَ أعيُنِنا؛ لِنُطبِّقَ آياتِه على أحوالِنا، ونُنزِلَها عليها، كما كانت تَنزِلُ على الأحوالِ والوقائعِ، فإذا حَدَثَ مَرَضٌ قلبيٌّ أو اجتِماعيٌّ طلَبْنا دواءَه في القرآنِ، وطبَّقناه عليه، وإذا عَرَضَتْ شُبهةٌ أو وَرَدَ اعتِراضٌ؛ طلَبْنا فيه الرَّدَّ

والإبطالَ، وإذا نزلَتْ نازلةٌ طلَبْنا فيه حُكمَها، وهكذا نذهَبُ في تطبيقِه وتنزيلِه على الشُّؤونِ والأحوالِ إلى أقصى حَدٍّ يمكِنُنا.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ﴿33﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن باديس: لَمَّا رَدَّ تعالى اعتراضاتِهم، وأبطَلَ شُبُهاتِهم؛ أخبرَ بأنَّه لا يَزالُ القرآنُ كذلك: يَدمغُ باطلَهم بحقِّه فيُزهِقُه، ويَصدَعُ غشاءَ تَمويهِهم بصادقِ بيانِه فيُمَزِّقُه؛ لِطمأنةِ قلْبِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم وتثبيتِه، والوعدِ له بدوامِ النَّصرِ والتأييدِ

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) أي: ولا يَذكُرُ مُشرِكو قُرَيشٍ شُبهةً أو اقتِراحًا يُعارِضون به الحَقَّ ويَطعنونَ به فيه، إلَّا أنزَلْنا مِن القُرآنِ ما يُبطِلُ شُبهَتَهم، ويَرُدُّ حُجَّتَهم بأحسَنَ مِمَّا جاؤوا به؛ بيانًا ووضوحًا، وفصاحةً وتَفصيلًا. موسوعة التفسير

قال ابنُ القيمِ: (التفسيرُ الأحسَنُ: هو الألفاظُ الدالَّةُ على ذلك الحَقِّ، فهي تفسيرُه وبيانُه... فلا بدَّ مِن أن يكونَ التفسيرُ مُطابقًا للمُفَسَّرِ مُفهِمًا له، وكلَّما كان فَهْمُ المعنى منه أوضَحَ وأبْيَنَ، كان التفسيرُ أكمَلَ وأحسَنَ؛ ولهذا لا تجِدُ كلامًا أحسَنَ تفسيرًا ولا أتمَّ بيانًا مِن كلامِ اللهِ سُبحانَه).

في تَنَزُّلِ آياتِ القرآنِ على حسَبِ الوقائعِ دَليلٌ على أنَّه ينبغي للمتكَلِّمِ في العِلمِ -مِن مُحَدِّثٍ ومُعَلِّمٍ- كلَّما حَدَثَ مُوجِبٌ أو حَصَلَ مَوسِمٌ، أن يأتيَ بما يناسِبُ ذلك مِن الآياتِ القُرآنيَّةِ والأحاديثِ النَّبويَّةِ، وفيها قدوةٌ صالحةٌ لأئمَّةِ الجُمَعِ وخُطبائِها في توجِّيهِم بخُطَبِهم الوقائعَ النازِلةَ، وتطبيقِهم خُطَبَهم على مقتضى الحالِ، وذِكرِ المواعِظِ الموافِقةِ لذلك.

وقال ابن عثيمين: يُؤخَذُ منه أنَّ كلَّ ذي باطلٍ نَجِدُ بيانَ باطلِه مِن الوحيِ المنَزَّلِ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فما مِن شُبهةٍ إلى يومِنا هذا تَرِدُ إلَّا وفي كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما يَدْحَضُها وقال ابن باديس: وإنَّك إذا تتبَّعْتَ آياتِ القرآنِ وجدْتَها قد أتتْ بالعَددِ الوافرِ مِن شُبَهِ الضَّالين واعتراضاتِهم، ونَقَضَتْها بالحقِّ الواضِحِ، والبيانِ الكاشفِ في أوجَزِ لفظٍ وأقْرَبِه وأبلَغِه، وهذا قِسْمٌ عظيمٌ جليلٌ مِن علومِ القرآنِ، يتحتَّمُ على رجالِ الدَّعوةِ والإرشادِ أن يكونَ لهم به فضلُ عنايةٍ، ومَزيدُ دِرايةٍ وخبرةٍ، ولا نحسَبُ شُبهةً تَرِدُ على الإسلامِ إلَّا وفي القرآنِ العظيمِ رَدُّها بهذا الوعدِ الصادقِ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ؛ فعلينا عندَ وُرودِ كلِّ شُبهةٍ مِن كلِّ ذي ضلالةٍ أن نَفزَعَ إلى آيِ القُرآنِ.

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿34﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن باديس: لَمَّا أبطلَ سبحانه شُبَهَهم؛ بَيَّنَ مآلَهم وجزاءَهم، فقال تعالى:

(الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا) أي: الذين يُجمَعونَ يومَ القيامةِ قَهرًا يُساقونَ مَقلوبينَ على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ: أولئك شَرٌّ مُستقَرًّا ومُقامًا في جهنَّمَ، وأضَلُّ طَريقًا عن الحَقِّ. موسوعة التفسير

وقال ابن باديس: أنَّ هؤلاء رفعوا وجوهَهم في الدنيا عنِ السجودِ للهِ، فأذلَّ اللهُ تلك الوجوهَ فمَشَوا عليها في المحشَرِ، ورفعوا رؤوسَهم كِبْرًا عن الحقِّ، فنَكسَها اللهُ يومَ القيامةِ، ومَشَوا في طريقِ النظرِ والاستدلالِ مَشيًا مقلوبًا، فمشوا في الآخرةِ مَشيًا مقلوبًا؛ فكان ما نالَهم مِن سوءِ تلك الحالِ جزاءً وِفاقًا لِمَا أَتوا مِن قُبحِ الأعمالِ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [فصلت: 46].

وقال ابن باديس: فيما يذكُرُه الله تعالى من هذا الجزاءِ العادلِ تخويفٌ عظيمٌ لنا مِن سوءِ الأعمالِ التي تؤدِّي إلى سوءِ الجزاءِ.

عن قَتادةَ، قال: حدَّثَنا أنسُ بنُ مالكٍ، ((أنَّ رجُلًا قال: يا رَسولَ اللهِ، كيف يُحشَرُ الكافِرُ على وجهِه يومَ القيامةِ؟ قال: أليس الَّذي أَمْشاهُ على رِجلَيهِ في الدُّنيا قادِرًا على أن يُمشِيَه على وجْهِه يومَ القيامةِ؟)). قال قَتادةُ: بلى وعِزَّةِ رَبِّنا. رواه مسلم

فَفِي الدُّنْيَا يَظْهَرُ نُورُ الْإِيمَانِ وَالْعِبَادَةِ عَلَى وُجُوهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَظْهَرُ ظُلْمَةُ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ عَلَى وُجُوهِ الْمُكَذِّبِينَ، وَيَعْرِفُ ذَلِكَ أَهْلُ الْفِرَاسَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ صَادِقًا فِي تَحَرِّي الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ، قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ"(رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ)، عَرَفَ ذَلِكَ بِفِرَاسَتِهِ، فَآمَنَ بِهِ، وَتَرَكَ الْيَهُودِيَّةَ.

وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَأَوْصَافُ وُجُوهِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْصَافُ وُجُوهِ الْمُكَذِّبِينَ فِي الْقُرْآنِ عَجِيبَةٌ؛ جَاءَتْ فِي جُمْلَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْآيَاتِ الْوَاضِحَةِ الْبَيِّنَةِ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرٍ وَبَيَانٍ؛ فَوُجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ بَيْضَاءُ، وَوُجُوهُ الْمُكَذِّبِينَ سَوْدَاءُ، وَوُجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ تَعْلُوهَا الْعِزَّةُ، وَوُجُوهُ الْمُكَذِّبِينَ تَكْسُوهَا الذِّلَّةُ، وَوُجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا نَضْرَةُ النَّعِيمِ، وَوُجُوهُ الْمُكَذِّبِينَ كَالِحَةٌ تَنْتَظِرُ عَذَابَ الْجَحِيمِ، وَعِنْدَ وَفَاةِ الْمُكَذِّبِينَ يُضْرَبُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ؛ إِهَانَةً لَهُمْ وَإِيلَامًا، وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: "إِنَّ النَّاسَ يُحْشَرُونَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَفْوَاجٍ: فَوْجٌ رَاكِبِينَ طَاعِمِينَ كَاسِينَ، وَفَوْجٌ يَمْشُونَ وَيَسْعَوْنَ، وَفَوْجٌ تَسْحَبُهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَتَحْشُرُهُمْ إِلَى النَّارِ"(رَوَاهُ أَحْمَدُ).

فَحَرِيٌّ بِأَهْلِ الْإِيمَانِ -وَهُمْ يَقْرَؤُونَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُفْزِعَاتِ فِي عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ، وَمَا يَنَالُ وُجُوهَهُمْ مِنْهُ- أَنْ يَتَدَبَّرُوا تِلْكَ الْآيَاتِ، وَأَنْ يَأْخُذُوا عِبْرَةً مِنْ شِدَّةِ حَرِّ الصَّيْفِ لِحَرِّ الموقِفِ العَظِيمِ يَومَ القِيَامَةِ، وَحَرِّ نَارِ جَهَنَّمَ، أَجَارَنَا اللهُ -تَعَالَى- وَوَالِدِينَا وَالمسْلِمِينَ مِنْهَا، وَحَرِيٌّ بِهِمْ أَنْ يَجْتَنِبُوا الْمُحَرَّمَاتِ، وَيَلْزَمُوا الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ، وَأَنْ يُكْثِرُوا مِنَ الصَّلَاةِ وَالسُّجُودِ؛ فَمَنْ أَكْثَرَ مِنَ السُّجُودِ لِلَّهِ -تَعَالَى- نُجِّيَ وَجْهُهُ مِنَ الْعَذَابِ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ أَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- حَرَّمَ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ.